وأياً كانت، على كل حال، العبارات والصياغة، فان العبرة تكمن، اولاً واخيراً، في الممارسة والتطبيق. وفي هذا الصدد، يُلاحظ، على وجه العموم، ان الكفاح المسلح، رغم الحديث الطويل المستمر حوله من قبل مجموعات المقاومة كافة، لم يُمارس، مرة، على الوجه الصحيح؛ وبالتالي، فانه لم يؤد الى الفائدة المتوخاة منه. وقد نجم ذلك، كما يبدو لنا، عن مفاهيم خاطئة، اعتبر بموجبها الكفاح المسلح «حالة» معينة، تفترض التدرب على استعمال السلاح وحمله واتقان «الطخطخة» والقيام بعمليات «عسكرية»، حسب التساهيل، ضد العدو الصهيوني. وبالمقارنة مع الوضع الذي كان قائماً قبل ظهور المقاومة، حيث كان مجرد النظر الى السلاح يكاد يكون محظوراً على الفلسطينيين، بدا الواقع الجديد، على الرغم من هشاشته، مثيراً ومغرياً. ولقد ساهم هذا النشاط، في حينه، على كل حال، وأياً كان مدى فعاليته، في تعريف العالم بالقضية الفلسطينية على الاقل، بعد ان كادت تختفي. وتُوِّجت تلك المرحلة بتحقيق انجازات سياسية كبيرة، لم تتبلور نتيجة جهود المقاومة فقط، بل، ايضاً، بسبب احداث مهمة، لعل ابرزها حرب تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣، اسفرت عن الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلاً شرعياً وحيداً للشعب الفلسطيني، على الصعيدين العربي والدولي. وتبع ذلك مرحلة من «الانتشار» السياسي الفلسطيني، في مختلف انحاء العالم، في طفرة من «الانجازات» المتلاحقة بدا معها كأن «النصر» اصبح قاب قوسين او أدنى.

ويبدو انه عند هذه المرحلة تنبه العدو الصهيوني للخطر المحدق الذي راح يهدده. فحركة المقاومة، التي كان يحلو له ان يصفها بأنها مجموعات «مخربين» لا تستحق اهتماماً كبيراً، راحت تتبلور على شكل حركة سياسية، بدت كأنها تنضج تدريجياً، وتنجح في اعادة احياء القضية الفلسطينية، بأبعادها المحلية والدولية المختلفة، على ما يمثله ذلك من خطر يتمثل في بعث البديل ـ النقيض للكيان الصهيوني. وسرعان ما تغير الموقف وقررت اسرائيل ان «تشتغل» بمنظمة التحرير الفلسطينية «على الثقيل». وتمثل هذا «الشغل»، في أحد شقيه، بمحاولات عدة لخلق قيادات فلسطينية بديلة داخل الاراضي المحتلة وطرح مشاريع حلول مختلفة على هذه الدولة العربية او تلك، تميزها كلها محاولات القفز عن م.ت.ف. والغاء دورها، بشكل او بآخر. وقد باءت كل هذه المحاولات بالفشل، في نهاية الأمر، على الرغم من المشاكل التي سببتها. اما الشق الآخر، الاكثر خطورة، والذي لم ينته بالفشل تماماً، فقد تمثل في شن حرب شبه شاملة، لا هوادة فيها، على م.ت.ف. كانت محطتها الرئيسة اذكاء نار الحرب الاهلية في لبنان، حيث تمركز النشاط الفلسطيني الرئيس، بهدف تدميره او، على الاقل، تضييق الخناق عليه. ولما لم يتحقق ذلك، قامت القوات الاسرائيلية، اخيراً، باجتياح البلد وعملت على اخراج القوات الفلسطينية منه عنوة؛ ليظهر، بعد ذلك، النظام الاسدي على المسرح، علناً، محاولاً اكمال المهمة، بأساليبه الخاصة به.

وخلال هذه الفترة بأسرها، على ما تخللها من تجارب مريرة مختلفة، لم يقم الفلسطينيون، على الرغم من المتاعب الشديدة التي واجهوها، بتطوير نشاطهم العسكري ـ سمّوه «الكفاح المسلح» ان شئتم ـ والارتقاء به، بما يتلاءم مع طبيعة المرحلة المستجدة وتحدياتها، بل امعنوا في الاشتغال «بالسياسة»، اضافة الى ما فرض عليهم من مقارعة «الاشقاء» العرب، حتى اذا ارادوا العودة الى «العسكر» وجدوا انهم كادوا ينسونه، بينما لم يتقنوا السياسة ايضاً، فبات حالهم كحال ذلك الغراب الذي اراد تقليد مشية الحمامة، ولم يفلح. وعندما اكتشف ذلك وأراد العودة الى مشيته الاصلية، وجد انه قد نسيها أيضاً.

ولا حاجة الى التنويه بأن هذا المجال، الذي نحن بصدده الآن، مهم وحيوي للغاية ولا يحتمل «التريقة». فبدون اتقان هاتين المشيتين: مشية الحمامة ومشية الغراب، سوية وفي آن معاً، والتمسك